النبوءة

"لا أريد أن يكتب عني أحد، ولا أن يدافع عن عهدي أحد (...). لا أريد تبرير شيء. وحده التاريخ يبرّر. لن يقتنع الناس ولاسيما منهم المسيحيين. لم يقتنعوا بالكثير الذي قمت به".

في الأسبوعين الأخيرين من حياته، كان وهناً ومتعَباً. أكثرَ من التدخين. ما يزيد على ثلاث علب في اليوم. في الغالب يدخن بإفراط. سجائره المفضلة التبغ المحلي. اعتمره الغضب وتحكّم بمزاجه. كان يتمشى بعصبية باستمرار، ويقول لزواره، أعوانه ومساعديه السابقين في حقبتي توليه قيادة الجيش ورئاسة الجمهورية، إنه غارق في التشاؤم والحزن ممّا ينتظر لبنان.
كان يضيف: "أرى لبنان مقبلاً على أيام سود. أرى برك دم. أرجو الله أن لا يجعلني أحضر هذه الأيام" [1].
كرّر العبارة بالفرنسية أكثر من مرة. قال كلاماً مماثلاً لصديقه رئيس بلدية غزير الخوري أنطون حداد، وهو يحدّق في تمثال سيدة لبنان، على تلة حريصا، قبالة بيته: "ستأتيكم أيام لن يبقى لكم منها إلا تلك الواقفة فوق".
قال ذلك لضباطه الذين اعتادوا زيارته في مناسبات شتى. في 19 آذار 1973 ردّد أمام مَن قصده لمعايدته بميلاده: "إذا لم يتوصّل المسؤولون إلى إيجاد حلّ، فما يترأى لعيني هو توقع حمّام دم بين اللبنانيين. هذه المرة لن يكون ثمة لا غالب ولا مغلوب، بل مغلوبان كبيران هما السيادة والإستقلال".
غمره، يومذاك، تشاؤم لم يكتمه حيال ما كان يبصره، وما كان يخشى حصوله في لبنان في السنوات التالية. تهاوت أمام عينيه صورة الجيش الذي بناه بعدما أثيرت من حوله فضائح صفقات واتهامات ونزاعات سياسية رمت إلى تقويض دوره، بدا المقصود منها التشهير بعهده والمؤسسة العسكرية. لوحق الضباط السابقون للشعبة الثانية وحوكموا. تلاحقت الصدامات العسكرية بين الجيش والفدائيين الفلسطينيين في أكثر من مكان في لبنان، وسط انقسام وطني بإزاء ما يجري، بالتزامن مع حملات سياسية وإعلامية استهدفت الجيش وشككت في سمعته، وقدراته، وهو يواجه في الوقت نفسه اعتداءات إسرائيلية في الجنوب وقصفاً مروعاً لقرى وبلدات، وسقوط مئات الضحايا البريئة.
أدرك الرجل المعتزل أن لبنان دخل دوامة الإنهيار، بعدما فَقَدَ ضماناً كان يثق بجدواه لتجنيب هذا البلد الإنفجار. بعد أسابيع قليلة على هزيمة الشهابية في انتخابات رئاسة الجمهورية، مات جمال عبدالناصر في 28 أيلول 1970. في أيام قليلة تهاوت التجربتان، الناصرية والشهابية. كانتا قد قادتا لبنان في سنوات حكم الرئيس السابق إلى استقرار راسخ لم ينعم به سلفاه بشارة الخوري وكميل شمعون، ولا خلفه شارل حلو. كسِبَ فؤاد شهاب رهان تعاونه مع الزعيم المصري، فأتاح له السهر على توازن سياسي داخلي مكّن الأفرقاء اللبنانيين من إدارة خلافاتهم ونزاعاتهم وتناقضاتهم، من غير الوصول بها إلى حافة الهاوية، وأبقى الجيش خارج الصراع السياسي، وأعاد بناء الدولة والإدارة. لم يكن يتردّد، بعد سنوات من مغادرته المنصب، في الطلب من ضباط الشعبة الثانية الذين كانوا يزورونه توسيط جمال عبدالناصر في النزاع الدامي في بيروت وطرابلس والجنوب بين الجيش ومنظمات المقاومة الفلسطينية عامي 1968 و1969. مراراً نصح شارل حلو بالإستعانة بنفوذ جمال عبدالناصر، القادر على حماية سيادة لبنان واستقلاله[2].
لكن فؤاد شهاب أدرك كذلك، بعد حرب الأيام الستة في 5 حزيران 1967 ـ وقد خسر جمال عبد الناصر من أراضي بلاده وزعامته القومية ـ أن الناصرية والشهابية توشكان على الوصول إلى

---

[1] ـ مقابلة خاصة مع العميد فرنسوا جينادري.
[2] ـ مقابلة خاصة مع العميد غابي لحود.
يقول مدير مكتب الرئيس جمال عبدالناصر للمعلومات اللواء سامي شرف إن الزعيم المصري، حتى يوم وفاته، ظلّ يردّد أمام معاونيه وزواره اللبنانيين سياسيين وضباطاً، أن لبنان ينبغي "أن يستمر كما هو بتركيبته الطائفية وتاريخه وجغرافيته وشعبه، وخلافات أبنائه واتفاقاتهم حتى. ليس هناك سوى هذا اللبنان. فلا يمسّه أحد". وهو خاطب المقدّم سامي الخطيب، في آب 1970، عندما قصده لاستمزاج رأيه في قرار الرئيس فؤاد شهاب ترشيح الياس سركيس لرئاسة الجمهورية: "يجب أن تحافظوا على بلدكم كما هو. إياكم أن يسعى أحد ما إلى تفكيكه" (مقابلة خاصة مع اللواء سامي شرف).

مفترق خطير يهددهما معاً. الفكرة والمدرسة والمبادىء والرجال والإرث وعِبرَ النجاح والإخفاق. ولأن لا شهابية من دون فؤاد شهاب، كانت كذلك التجربة الأخرى عام 1971: لا ناصرية من دون جمال عبدالناصر. لوحق رجال فؤاد شهاب في الإستخبارات العسكرية اللبنانية، وزُجّ بعضهم في السجن. وكذلك رجال جمال عبدالناصر.

باكراً رسم فؤاد شهاب، بين عامي 1969 و1973، الصورة القاتمة وهو يلاحظ تقاسم الدولة العبرية والمنظمات الفلسطينية المسلحة انتهاك السيادة اللبنانية التي اعتبرها باستمرار المهمة الأولى والجوهرية للجيش. لم تتوقف اعتداءات الجيش الإسرائيلي عن تدمير بيوت الآمنين في الجنوب وقتلهم، وأفرط المسلحون الفلسطينيون في مخالفة اتفاق القاهرة والتعرّض للسيادة الوطنية، وفي التسلّح والتمدّد خارج مخيماتهم الفلسطينية، والدخول طرفاً في الإنقسامات الناشبة بين السياسيين اللبنانيين. كان ثمّة تعطيل متعمّد لدور الجيش والتشكيك فيه وتبديد هيبة قيادته، وكذلك محاولة تعريضه لخطر التفكك الطائفي والإنقسام وانهيار بنية الدولة اللبنانية. وَجَدَ في محاكمة ضباطه محاولة إدانة عهده والشهابية برمتها، وفي الوقت نفسه دفع البلاد إلى حافة انهيار بعد حرمانها من مقوّمات قوتها والأداة التي تذود عنها. قال لبعض ضباطه الذين أُبعدوا ثم استدعيوا إلى المحاكمة: "أخشى أن لبنان سيعود وينقسم. لكن مَن سيعيد توحيده؟ الله أعلم".

أضاف: "لو كنت أعرف أن الضباط سيلاحقون على نحو كهذا من التشفّي والإنتقام، ويساء إليهم ويحاكمون على ما لم يرتكبونه، لما كنت تردّدت في العودة إلى الرئاسة"[3].

قال كلاماً مشابهاً أمام ضباط آخرين ظلّوا يقصدونه بعد انتهاء ملاحقتهم القضائية: "يحزّ في نفسي أن ما يحصل ليس محاكمة أشخاص، بل محاكمة عهد. يريدون عبر الإساءة إلى الضباط والجيش الإساءة إليّ والتنكيل بعهدي. لهذا كله سلبيات خطيرة على مستقبل الجيش. على مستقبل البلد أيضاً"[4].

حينذاك، ألقت محاكمة الضباط السابقين بثقلها عليه. أحزنه أن سليمان فرنجيه، عندما زاره في مصيفه في عجلتون، غداة انتخابه رئيساً للجمهورية في 17 آب 1970، في الزيارة التقليدية التي يقوم بها الرؤساء المنتخبون لأسلافهم، تعهّد له عدم التعرّض للضباط، ميّالاً إلى الإكتفاء بمناقلات في صفوفهم تجرّدهم من نفوذهم القوي وتُخرجهم من مواقعهم في جهاز الإستخبارات العسكرية التي مكثوا فيها سنوات طويلة بلا انقطاع، كالمقدّم غابي لحود والمقدّم سامي الشيخة منذ عام 1959، والمقدّم سامي الخطيب منذ عام 1960، والرائدين إدغار معلوف وعباس حمدان والنقيب جان ناصيف منذ عام 1962، والرائد ميشال الخوري والنقيبين جورج الحرّوق ونعيم فرح منذ عام 1963.

وردّاً على رغبة صريحة أبداها الرئيس السابق ـ وهو يحدس سلفاً بما سيكون عليه في العهد الجديد موقعا صائب سلام وريمون إده الكثيري العداء للشعبة الثانية ـ قطع له سليمان فرنجيه وعداً بأن لا يمسّ الضباط أي انتقام أو ملاحقة. على الأثر استدعى فؤاد شهاب إلى مصيفه غابي لحود وطمأنه إلى مصيره ورفاقه مع انتقال الحكم من حقبة إلى أخرى[5]. لكن ضغوطاً سياسية حادة عَجِزَ الرئيس الجديد عن مقاومتها، واجهها من رئيس أولى حكومات عهده صائب سلام والرئيس الجديد لمجلس النواب كامل الأسعد، وكذلك من ريمون إده وجوزف سكاف وكاظم الخليل، ساعين إلى تصفية حسابات سياسية قديمة بينهم وعهد الرئيس السابق ورجال حكمه، حملته على نكول وعده.

بعد أيام على بدء ولاية سليمان فرنجيه، أقصي الضباط من مناصبهم في النصف الأول من تشرين الأول 1970، ووُزعوا على مواقع عسكرية بعضها ناء في أطراف الجنوب. سرعان ما أُرسِلوا

---

[3] ـ مقابلة خاصة مع العميد جان ناصيف.

[4] ـ مقابلة خاصة مع العميد جورج الحرّوق.

[5] ـ المصدر نفسه.

[6] عقاباً لهم على تجاوزات
اتهمهم أركان العهد الجديد ورجاله بارتكابها، واعتبروها مخلة بقانون الجيش وأنظمته والصلاحيات المنوطة بمهماتهم، والخروج على الإنضباط واستغلال الوظيفة العسكرية، ناهيك بتدخّلهم في شؤون سياسية وفي الإنتخابات النيابية، وإهدار مال عام، واستخدامهم التهديد والترهيب والترويع وحجز حرّيات، وإتلاف وثائق وملفات سرّية عسكرية. وتفادياً لتشهير يطاول الجيش من جراء إخضاعهم لمحاكمة عسكرية في مرحلة سياسية جديدة، مثلت انقلاباً على دور الجيش في الحقبة المنقضية، ارتأى رئيس الجمهورية إبعادهم إلى خارج لبنان.

أشعَرَ هذا التحوّل السياسي فؤاد شهاب بافتئات وظلم لحقا بعهده نبذاً وتشهيراً وإساءة، بدءاً بملاحقة ضباط الشعبة الثانية. كمنت معاناته من النصف الثاني من عام 1971 في اكتشافه أن الشعبة الثانية في الحكم الجديد راحت تراقب زواره سياسيين وضباطاً، ولا تتورّع عن تأنيب الأخيرين، وأحياناً معاقبتهم، لزيارتهم له من دون إذن مسبق. اكتشف أيضاً إبان وجود الضباط السابقين للشعبة الثانية خارج البلاد، ملحقين عسكريين، أن رسائلهم إليه في لبنان كانت تفتح في مراكز البريد ما أن يقرأ المكلفون المراقبة وجهة الرسالة: "فؤاد شهاب، جونيه". في بضعة مراسلات مع ضباطه لفتهم إلى "رسائل ضاعت في مكان ما"[7]، و"إننا مضطرون لبعث الرسائل من الخارج لأن الديموقراطية هنا توجب مراقبتها"[8]. قال في رسائله: "أنا غير متأكد تماماً من الوسيلة التي يمكن استعمالها لإيصال رسالتي من دون أن يطلع عليها طرف ثالث. في نهاية الأمر من طريق باريس، أمّنا الحنون (...) تسود هنا روح انتقام عن سابق تصوّر وتصميم بدافع سياسي أو عائلي، تستهدف المعتقلين بغية التوصّل إلى أدلة. لا يأخذون في الإعتبار أياً من الخدمات التي أسديت إليهم. في إمكاننا النظر إلى ذلك من الجانب البسيط من المشكلة. أنا مصدوم من اللاعدالة السائدة التي أثور ضدها. لكن في النهاية، لحسن الحظ، هناك العدالة الإلهية"[9].

كان يتلقى رسائل من أحمد الحاج وميشال ناصيف وجان ناصيف وجورج الحرّوق، ويحرص على إجابتهم عنها، واحداً واحداً، مشجّعاً إياهم على الصبر، ومعبّراً لهم عن "شعور كبير بالسعادة تولّد لديّ يذكّرني بإحاطتي بهذا الفريق من الضباط الذين يتميّزون بالإخلاص. بدأت أؤمن بالمثل القائل بأن لكل سوء حال نهاية جيدة، ينطبق على حالكم كلكم (...) أتمنى ألا يطول غيابكم مع أنني لا أرى في الوقت الراهن أملاً كبيراً في العودة. الله كريم (..) هنا تشكيلات وإحالة على التقاعد نفّذت على رغم بعض العقبات، وبموافقة "الصارم" (قائد الجيش العماد جان نجيم) الذي بدأ فرض بعض السلطة بعدما بنى أحسن العلاقات"[10].

كتب إليهم كذلك: "أنا فعلاً آسف لما حدث لكم، أنتم الذين لم تقوموا بأي عمل إلا من أجل المصلحة العامة. أتساءل أحياناً إن كنت على حق في أن لا أفكر إلا في مصلحة بلدي، وقد سار ورائي أشخاص يتمتعون بنزاهة مثالية. أدرك الآن متأخراً أن معظم الحاكمين لا يقومون إلا بلعب أدوار في ملهاة كبيرة تجعلهم يبدون وطنيين كباراً. لست نادماً على شيء. لكن ضميري غير مرتاح حيال ما

---

[6] ـ عيّنهم المرسوم ملحقين عسكريين في دول ليس بينهما ولبنان تبادل ملحقين عسكريين: غابي لحود في تشيكوسلوفاكيا، كمال عبدالملك (الذي كان غادر الشعبة الثانية عام 1964) في غانا، سامي الخطيب في غينيا الجديدة، جان ناصيف في ليبيريا، جورج الحرّوق في الأوروغواي. إلى ضابطين لم يكونا في الشعبة الثانية هما أحمد الحاج في الأرجنتين، وميشال ناصيف في السنغال. لكن معظم هذه الدول لم يقبل اعتمادهم، فعيّنوا ملحقين عسكريين في أخرى. أرغموا على مغادرة لبنان في 26 كانون الأول 1970 والإنتظار في الخارج ريثما يتلقوا نبأ موافقة الدول الجديدة على انتدابهم لديها: غابي لحود في إسبانيا، سامي الخطيب في باكستان، جان ناصيف في الهند، جورج الحرّوق في الأوروغواي، كمال عبدالملك في فنزويلا، أحمد الحاج في الأرجنتين، ميشال ناصيف في يوغوسلافيا (نقولا ناصيف، **المكتب الثاني، حاكم في الظلّ**، دار مختارات للنشر، بيروت، 2005، ص 376 - 378).

[7] ـ رسالة الرئيس فؤاد شهاب إلى النقيب جان ناصيف، الملحق العسكري في الهند، مؤرخة 12 حزيران 1971.

[8] ـ رسالة الرئيس فؤاد شهاب إلى النقيب جان ناصيف، مؤرخة 4 شباط 1972.

[9] ـ رسالة الرئيس فؤاد شهاب إلى المقدّم ميشال ناصيف الملحق العسكري في يوغوسلافيا، مؤرخة 4 شباط 1972.

[10] ـ رسالة الرئيس فؤاد شهاب إلى النقيب جان ناصيف، مؤرخة 12 حزيران 1971.

يتعلق بكم، أنتم الذين دفعوا ثمن ذلك من تجميد ترقياتهم، أي حياتهم المهنية. أخيراً، أنا متيقّن من أن الله سوف يصوّب يوماً ما هذا الظلم الفادح. ما يزعجني ليس نكران الجميل لدى الأشخاص الذي هو مسألة إنسانية، وإنما خطأي في عدم إدراكي تماماً عقلية أناس كثيرين من أهل بلدي. إنه دائماً الوضع نفسه الذي، في رأيي، لا يتغيّر إلا بالموت"[11].

ما أن أن أكمل الضباط المبعدون سنتهم الأولى في الخارج حتى أعيد فتح ملفاتهم. كان قد طرأ تطور أتاح ملاحقتهم هو غياب قائد الجيش جان نجيم. قتل في تحطّم طوافة عسكرية كانت تقله من إهدن إلى وزارة الدفاع الوطني في اليرزة في 24 تموز 1971. يوم اكتشف جان نجيم خطة رمت إلى ملاحقتهم قضائياً عَمِلَ على حمايتهم، متوسّطاً لدى رئيس الجمهورية للإكتفاء بإقصائهم عن مناصبهم، ثم إبعادهم عن لبنان. تولّدت حجته هذه من خشيته من تأثر المؤسسة العسكرية بالإقتصاص من ضباط بارزين ولامعين ونافذين، يطبع سمعة الجيش ويفضي إلى التشهير به.

ترك تصرّف جان نجيم صدى إيجابياً لدى فؤاد شهاب الذي كان قد زكى تعيينه قائداً للجيش في 7 كانون الثاني 1970، خلفاً للعماد إميل بستاني. لكن ذلك لم يبدّد حزن الرئيس السابق على الإساءة إلى ضباطه. لم تنقطع اتصالاتهم به وهم في الخارج. في بعض مراسلاته إليهم، كل في البلد الذي أقصي إليه، أكد لهم، خلافاً لما أضحى عليه في الأشهر الأخيرة من حياته، أنه "غير متشائم لأن لبنان سينهض في النهاية إلى مستوى البلدان المتقدّمة. ربما استغرق ذلك بعض الوقت بسبب ضعف مؤسساتنا وعقلية حكامنا. غير أن الأجيال الصاعدة، على رغم نقص ثقافتها المدنية، ستنتهي بفضل غريزة البقاء والوقت إلى تولي زمام المبادرة وتسلم الحكم"[12].

في رسالته تلك أسف لمقتل جان نجيم "الذي كان يتألم كثيراً لوضع الجيش إلى درجة أنه ـ قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة مع ذلك الضابط المسكين قائد الطوافة ـ قال لراهبة هبّت لمساعدته عند سقوط الطوافة قرب الدير الذي تخدم فيه: إذهبي إلى الرئيس فرنجيه وقولي له أن يكمل مسعاه في عدم تسييس الجيش. على القائد الذي سيخلفه الكثير من العمل لتصحيح الأوضاع التي شرحها لي (جان نجيم) على مدى ساعتين في زيارته الأخيرة لي، قبل يومين من الحادث"[13].

في 27 كانون الأول 1971، باستثناء أحمد الحاج وميشال ناصيف، استدعت قيادة الجيش تباعاً الضباط المبعدين إلى بيروت وطلبت منهم الإستقالة، تحت تهديدهم بمثولهم أمام المجلس التأديبي. رفضوا، فصدرت أوامر بتوقيفهم للتهم تلك. أحيلوا عليه في آذار 1972. قضت أحكام المجلس التأديبي بتسريحهم من الجيش لأسباب تأديبية بمراسيم صدرت ما بين 8 آذار 1972 و31 كانون الثاني 1973[14]. لم يستسلم الضباط لاقتصاص العهد الجديد منهم، فتقدّموا بمراجعات إبطال قرارات التسريح لدى مجلس شورى الدولة.

لم يكن القائد الجديد للجيش العماد اسكندر غانم قد اكتفى بطردهم. في 11 أيلول 1972 طلب إحالتهم على المحكمة العسكرية. إذ ذاك، أدرك بعضهم أنه في صدد دخول السجن انتقاماً من العهد الشهابي وسطوتهم طوال 12 عاماً.

قصد سامي الخطيب فؤاد شهاب في منزله في جونيه، وأطلعه على رغبته في الفرار إلى سوريا، وطلب اللجوء إليها من تعسّف السلطة اللبنانية.

تفهّم الرئيس السابق قلقه، ولكنه لم يجاره في خطته، مفضّلاً بقاءه في بيروت.

---

[11] ـ رسالة الرئيس فؤاد شهاب إلى المقدّم ميشال ناصيف، مؤرخة 2 كانون الأول 1971.

[12] ـ رسالة من الرئيس فؤاد شهاب إلى النقيب جان ناصيف، مؤرخة 29 تموز 1971.

[13] ـ المصدر نفسه.

[14] ـ شملت الملاحقة غابي لحود وسامي الخطيب وجورج الحرّوق في مرحلة أولى، ثم سامي الشيخة وجان ناصيف وكمال عبدالملك ونعيم فرح، في حين استثني منها إدغار معلوف وميشال الخوري وعباس حمدان الذين لبثوا في الخدمة. أما أحمد الحاج وميشال ناصيف فاكتفي بإبقائهما ملحقين عسكريين في الخارج.

قال له سامي الخطيب: "لا أستطيع الإقدام على عمل من دون إعلامك به قبلاً. ولن أدعهم يذللونني ويسجنونني. أنا ذاهب إلى الشام لأنني هناك ورقة في يدك، بينما في السجن هنا أكون ورقة في يد سليمان فرنجيه وصائب سلام".
لم يقتنع الرئيس بالجواب. قال: "أتفهّم ما تقوله لي ومخاوفك. لكنني لا أستطيع أن أنصحك بالذهاب إلى سوريا. القرار يعود إليك. وأرى في أي حال أن محاكمتك هنا أفضل".
ردّ سامي الخطيب: "لو أن محاكمتي ستجري كما تعتقد لفعلت ذلك، ومكثت في بيروت أسبوعاً أو شهراً أو أكثر حتى إعلان براءتي. ولكنها ستكون محاكمة سياسية. كل التهم المسوقة إلينا ليست صحيحة".
قال الرئيس السابق: "أعرف أن ما تقوله صحيح، لكنني لا أستطيع أن أقول لك إذهب إلى الشام"[15].
فرّ سامي الخطيب إلى دمشق في 21 شباط 1973. بعد ستة أيام لحق به سامي الشيخة، ثم كمال عبدالملك في الأول من آذار، فجان ناصيف في الثاني منه. أما غابي لحود فكان لا يزال في إسبانيا مذ سُرّح من الجيش. فصدرت في حقه مذكرة توقيف غيابية.
ترك لجوء الضباط إلى سوريا أثراً في فؤاد شهاب. قال لرفاقهم الذين لبثوا في لبنان: "اعتاد اللبنانيون أن يعرفوا لجوء ضباط وسياسيين سوريين إلى لبنان، لا العكس. إنها المرة الأولى التي ينقلب فيها اللجوء. أعتقد أنه أمر مؤسف أن يؤول الوضع بالجيش إلى أن يفعل ذلك بعض ضباطنا. تصرّف غير مألوف في انضباطنا وتقاليدنا العسكرية"[16].
في 5 نيسان 1973 لفظت المحكمة العسكرية أحكاماً غيابية بالسجن على الضباط الفارين، وعلى الماثلين أمامها بالبراءة. بعد 20 يوماً توفي فؤاد شهاب، قبل أن تفضي تسوية سياسية بين لبنان وسوريا إلى عودة الضباط الفارين إلى بيروت وإعادة محاكمتهم وتبرئتهم. في 5 آب 1974 بُرئ سامي الخطيب وجان ناصيف وسامي الشيخة وكمال عبدالملك، وفي 30 تشرين الثاني برئ غابي لحود[17].
كانت معاناة الضباط ومحاكمتهم كأحد مظاهر الإنتقام من الحقبة الشهابية لإدانة عهده، قد أتعبت قلب الرجل.
يوم وفاته لم يتسّن للضباط الأقرب إليه المشاركة في وداعه وإلقاء النظرة الأخيرة عليه. كان سامي الخطيب وسامي الشيخة وكمال عبدالملك وجان ناصيف في دمشق، وغابي لحود في مدريد. عزم على الحضور إلى بيروت رغم صدور حكم غيابي بإدانته. ركب الطائرة من إسبانيا إلى إيطاليا في طريق عودته إلى لبنان. لكن اتصالاً بلغه من رشيد كرامي بواسطة صديق مشترك ثناه عن الرجوع. أبلغ إليه رشيد كرامي أن رئيس الجمهورية لم يتساهل في السماح له بالمشاركة في تشييع فؤاد شهاب، وهدّد باعتقاله في مطار بيروت ما أن تطأ قدمه أرضه. فعاد غابي لحود إلى مدريد.

- 2 -

في 20 نيسان 1973، قبل خمسة أيام من وفاته، قصد فؤاد شهاب مكتبه الصغير في منزله، في جونيه، وجمع أوراقاً كثيرة كان قد سجّل عليها ملاحظات وتعليقات ووقائع وأفكاراً، إلى مفكرات تضمّنت يوميات كان يحتفظ بها مذ كان برتبة نقيب في عقد الثلاثينيات من القرن الماضي، عن أحداث ذلك الوقت. محفوظات كتبها بالفرنسية توطئة لمذكرات كان يرغب في تدوينها. وضعها في

[15] ـ نقولا ناصيف، **المكتب الثاني، حاكم في الظلّ**، ص 395.
[16] ـ مقابلة خاصة مع العميد جورج الحرّوق.
[17] ـ نقولا ناصيف، **المكتب الثاني، حاكم في الظلّ**، ص 394 - 410.

ّد، وتجاهل الأمر علّ
الرئيس يعدل عن موقفه بعد أن يخمد غضبه.
مساء اليوم التالي، 21 نيسان، سأله إن كان أنجز ما أمره به. ردّ بالنفي. للتوّ نزل الرئيس السابق إلى الحديقة وجمع الصناديق الثلاثة وأشعل النار فيها بنفسه، وألقى بها في ساقية صغيرة تعبر بحديقته. ثم عاد إلى مكتبه.
في حمأة غضبه وهو يحرق الأوراق والمذكرات والوثائق، كانت زوجته روز رينه بواتيو، الخائفة عليه، تحاول تخفيف انفعاله بقولها: "أرجوك إهدأ قليلاً، سوف تنفجر".
في تلك الأثناء حضر مرافقه السابق ميشال ناصيف. خاطبته روز: "هل تعرف ماذا فعل؟ لقد أحرق كل أوراقه ولا يريد أن يكتب شيئاً، أو يُكتب عنه شيء. إنظر كيف هو. لقد كنت عاجزة عن تهدئته".
قال الرئيس، وهو يمجّ سيكارته بعصبية، إنه أحرق أوراقه كلها لئلا يقال يوماً إنه كتب كي يبرّر مرحلة عهده، والدفاع عنها كما فعل سواه، ولأنه لا يحب أن يكتب عن نفسه.
وتوجّه إليه بالتمنّي الآتي: "لا أريد أن يكتب عني أحد، ولا أن يدافع عن عهدي أحد، ولا أن يؤتى على ذكر عهدي"[18].
ذكّره بأن شارل ديغول، الرئيس الفرنسي، كتب مذكراته. ردّ: "هذا الرجل من طراز مختلف. بدأ كتابة مذكراته عندما ترك الحكم في الأربعينات أملاً في استعادة العمل السياسي".
وأضاف: "لا أريد تبرير شيء. وحده التاريخ يبرّر. لن يقتنع الناس ولاسيما منهم المسيحيين. لم يقتنعوا بالكثير الذي قمت به"[19].
الكلام نفسه قالته زوجته الفرنسية في الساعات الأخيرة من حياتها المديدة التي عاشتها منقطعة عن الناس. جَرَحَها أن زوجها غاب من غير أن يُنصَف: "لا نريد أن يُكتب عنا شيء. وكما كان يريد الرئيس، لا نريد أن يقال أي شيء. أحرق كل أوراقه ولم يُبقِ على ورقة حتى لا يكذب، ولأنه لا يستطيع أن يكتب كل ما يعرفه. الناس لن يصدقوننا"[20].
لكن مفارقة روز رينه بواتيو اكتشافها بعد ساعات من إحراق زوجها مذكراته، أن بضع أوراق أخرى عثرت عليها قد نجت، فأحرقتها بدورها في وقت لاحق كي لا يبقى ثمّة ما يقال عنهما[21].
يومذاك، قال فؤاد شهاب لمرافقه السابق: "لقد وقعت الواقعة. لبنان مقبل على أحداث كبيرة، وأنا أخشى أن ينهار الجيش وينقسم كما هو الشعب منقسم اليوم. الفوضى ستضربنا، وليساعدنا الله إذا تدخّلت دولة أجنبية في لبنان. لن نعرف عندئذ كيف سنخرج من المشكلة".
لم يُسمِّ الدولة تلك.
أضاف: "أخشى أيضاً أن لا يكون في وسعك متى أتيت إليّ مرة أخرى العودة إلى بيتك"[22].
كان حدسه صائباً. بعد عشرة أيام، في 3 أيار 1973، انفجر صدام عسكري بين الجيش والفدائيين الفلسطينيين عند أطراف المخيمات في بيروت، توسّع إلى أحياء عدة في الضواحي الجنوبية والشرقية والشمالية من العاصمة.
منذ حرب الأيام الستة، تنبّه إلى أخطار تقترب من لبنان، ولكنه لم يلمس دنو العاصفة إلا بعد إعلان اتفاق القاهرة في 3 تشرين الثاني 1969، بين الجيش ومنظمة التحرير الفلسطينية. وجد فيه بداية مسار خطير في الحياة السياسية والإستقرار في لبنان، وأحد الأسباب التي ستحمله على العزوف في

---

[18] ـ كان ثمّة تبرير آخر ساقه في الساعات التالية لعبدالله، إبن شقيقه فريد، مستفسراً دوافع إحراقه أوراقه ومذكراته، فأجابه: "كي أحميكم من أي انتقام بسببي في المستقبل" (مقابلة خاصة مع عبدالله فريد شهاب).
[19] ـ مقابلة خاصة مع العميد ميشال ناصيف.
[20] ـ مقابلة خاصة مع الأب أنطون حداد.
[21] ـ مع ذلك وُجِد، في ما بعد، في أدراج مكتب الرئيس السابق ملفات ووثائق وتقارير ومراسلات ومخطوطات مهمة تعود إلى حقبة عهده، بعضها بخط يده أو وُجّهت إليه.
[22] ـ مقابلة خاصة مع العميد ميشال ناصيف.

ما بعد عن الترشّح لانتخابات رئاسة الجمهورية عام 1970. لم يتردّد في الإشارة إلى هذا الجانب من القلق في بيان العزوف في 5 آب 1970. أدرك أن لبنان ذاهب إلى انفجار قد لا يكون في وسع أي رئيس للجمهورية تفاديه، فطوى مطالبته الضمنية بصلاحيات دستورية إضافية لرئيس الدولة من خوفه على المستقبل.

الأربعاء 25 نيسان، فأجاته نوبة قلبية قاتلة.

كان فؤاد بطرس وجوزف أبوخاطر وصديقه الراهب يعقوب سقيم آخر زواره. في مفكرة ذلك اليوم موعدان في الظهر مع جوزف أبوخاطر وفؤاد بطرس، وفي السادسة مساء مع برهان أدهم، ضابط كبير في الإستخبارات العسكرية السورية طلب زيارة عاجلة للرئيس السابق ظلّت أهدافها غامضة، في حمأة نزاع سياسي وعسكري حاد بين السلطة اللبنانية والمقاومة الفلسطينية. كانت سوريا تسعى إلى الدخول على خط الوساطة.

فور انتهاء اجتماعه بفؤاد شهاب، عرّج جوزف أبوخاطر على بيت شقيقه شكيب، المجاور، وشكى إليه من سوداوية فاجأته في حواره مع الرئيس. قال السفير السابق في القاهرة، الذي اضطلع بدور مهم في إرساء علاقة فؤاد شهاب بجمال عبدالناصر ونقل بينهما الرسائل، لشكيب شهاب إنه لا يرى مبرّراً لمثل هذه السوداوية التي تجعل شقيقه الأكبر يصوّر له الوضع في لبنان قاتماً ومقبلاً على خطر داهم أقرب إلى انهيار كبير.

سمع الرئيس يقول أيضاً إن الجيش ربما أصبح بدوره مهدّداً.

ردّ فعل شكيب شهاب أن كلاماً مماثلاً قاله له في اليوم السابق[23].

استقبل بعد ذلك فؤاد بطرس، في الأولى بعد الظهر. تحدّثا في الوضع الداخلي والتطورات الوشيكة.

في سياق حوارهما، سأله فؤاد شهاب: "ماذا يختار السياسي في رأيك عندما تصطدم مصلحته الخاصة بالمصلحة العامة؟ من المؤكد أنه سيختار مصلحته الخاصة".

واستطرد: "إذن كيف يمكننا بناء دولة؟".

رافق زائره إلى المدخل الخارجي للبيت، ثم إلى الدرج بعتباته القليلة، وودّعه بابتسامة لم ترسم على وجهه أمارات التعب والمرض.

قال لفؤاد بطرس: "لا تحمل السلم بالعرض. احمله بالطول. هل سمعتني؟"[24].

وكرّر العبارة.

قبل ثلاثة أسابيع زاره ضيف مميّز. العالم الدستوري الفرنسي موريس دوفرجيه. قصده في لقاء خاص طويل للإصغاء إلى أرائه في الوضع اللبناني. لم يشأ أن يُكثر من طرح الأسئلة عليه، تاركاً للجنرال المبادرة وتقدير ما يودّ أن يقاربه من مواضيع، أو يسترسل في الخوض فيه. تكلم كثيراً. بوضوح كبير وبساطة مماثلة. كان معتدلاً، متواضعاً، لطيفاً يوحي بالإحترام، محاولاً تقويم الأشخاص والأشياء من دون أحكام مسبقة، وخصوصاً من دون انفعال[25].

قال له الرئيس: "منذ الإستقلال يرتكز لبنان على توازن بين طوائفه. هل يبدو لك هذا التوازن قادراً، في السنوات المقبلة، على الإستمرار في تكوين البنية الأساسية للبنان؟".

قبل ساعة من هذا اللقاء، كان الزائر الفرنسي طرح السؤال نفسه على رئيس الجمهورية سليمان فرنجيه. فردّ بالإيجاب. ومن دون تردّد برّر رأيه الذي عدّه موريس دوفرجيه حججاً جدّية.

---

[23] ـ مقابلة خاصة مع بديعة شكيب شهاب.

[24] ـ مقابلة خاصة مع الوزير فؤاد بطرس.

[25] ـ انطباعات دوّنها البروفسور موريس دوفرجيه في مقال عن لقائه الرئيس فؤاد شهاب، نشرته **الأوريان ـ لوجور** في 29 نيسان 1973. وأضاف: "قال هذا العسكري أشياء بدت لي أكثر صدقية من كثير ممّا سمعته من عدد كبير من السياسيين. فوجئت أيضاً بواقع أنني أمام لبناني أصيل. أريد أن أقول رجلاً يفكر في لبنان كوحدة وطنية، عوض أن يراه من خلال طائفة. وهذا أمر غير شائع في لبنان".

لكن رأي فؤاد شهاب كان مختلفاً بكليته عن سلفه. مع تشديده على أهمية الطوائف في الحياة اللبنانية وضرورة المحافظة على التوازن في ما بينها، قال بصفاء رؤية: "المشكلة الأساسية في لبنان، اليوم وغداً، اجتماعية. يجب إرساء توازن اجتماعي في لبنان لا وجود له. كان هذا هدفي عندما كنت في الحكم. ولا أعتقد أنني كنت أخطأت في ذلك. أرى المشكلة اليوم تطرح نفسها بإلحاح أكثر. لم أستطع سوى وضع بعض القواعد للإنطلاق في مشروع هو بالضرورة بعيد المدى".
اعتبر أيضاً هذه المشكلة ملحة للغاية، ولاحظ بلا أدنى شك أن لبنان لم يعد في حال متفجّرة كالتي شهدها عام 1958 "حيث القوة الناصرية تهدّد بتفكيكه. لكن لم تكن لها السيطرة في ذلك الحين لولا أنها وفرت مخرجاً للجماهير الإسلامية التي تحمّلت الوزر الرئيسي لانعدام المساواة الإجتماعية. ولأن الوضع لم يتغيّر على نحو كاف، فإن أي حدث يبلور عدم الرضى من شأنه التسبّب بانفجارات أخرى. إذاً، وحده، إرساء العدالة الإجتماعية يؤمن للبنان توازناً حقيقياً. بالتأكيد تشكّل التسوية بين الطوائف عنصراً آخر في هذا التوازن. بيد أن هذا العنصر أصبح أقل أهمية من العدالة الإجتماعية. وبمقدار ما تُستخدم التسوية للجم العدالة الإجتماعية، أو الحؤول دون نموّها، تصبح بدورها خطراً".
سأله موريس دوفرجيه لماذا لم يُرِد البقاء في الحكم كي يفرض الإصلاحات التي كان يراها ضرورية، فأجابه فوراً وبلا دوران: "لأنني لم أشأ التصرّف كديكتاتور كما كان ينبغي فعله حينذاك". وببساطة كبيرة أضاف: "لم تكن السياسة مهنتي، وكنت قد تعبت. اتفقنا، زوجتي وأنا، على أن عليّ الإنسحاب. كما أعتبرت أن من الحتمي إبقاء الجيش في منأى عن السياسة".
ولما سأله هل كان لخلفائه الهمّ نفسه، ردّ الجنرال بابتسامة: "ليس تماماً"[26].

- 3 -

الثالثة بعد ظهر الأربعاء 25 نيسان 1973، طلبت زوجته من السائق المعاون طنوس نعيم المكوث بعض الوقت، وقد لاحظت إجهاداً على الرئيس. في تلك الأثناء حضر صديقه الأب أنطون حداد. صلّيا السبحة على غرار ما درج عليه من حين إلى آخر. لبث الزائر دقائق ثم انصرف.
تغدّى وروز وجبة خفيفة، في الغالب هي من الخضر وقطع لحم صغيرة وفواكه. رغب في استراحة قصيرة. اعتاد على قيلولته. آنذاك لم يستطع النوم. تفقدته، فوجدته يتقلّب عبثاً في سريره من غير أن يتمكن من إغماض جفنيه. سألته وقد بدا اصفرار على وجهه، فأجاب: "لعلّه عسر هضم".
ورفض الإتصال بالطبيب.
لم يكن الأمر يستحق، بالنسبة إليه، العناء والقلق.
خرجت وعادت تتفقده. زاد الإصفرار يغمر وجهه. طلب أن يتمشّى قليلاً. ما أن سار خطوات حتى تقيأ. كانت تلك إشارة إلى نوبة تعصف بقلبه المتعب.
صرخت روز مستنجدة، وساعدته على الجلوس في سريره، وقد بدا وجهه محمرّاً. اتصل سائقه بالطبيب الخاص أنطوان مرعب، وتحدّث إليه الجنرال شارحاً أسباب وهنه، قائلاً إنه بات في حال أفضل بعد تقيؤه. جلس إلى كرسي، وشرب كوب ماء. لاحظت روز العرق يتصبّب على الوجه البادي الإصفرار مجدّداً، خافياً ألماً كتمه الرئيس أيضاً.
طلب كوب ماء آخر، إلا أنه لم يقوَ على شربه، وقال كلمة واحدة: "يا عذراء".

---

[26] ـ أراء أسرّ بها الرئيس فؤاد شهاب إلى البروفسور موريس دوفرجيه الذي ختم مقاله بأن مضيفه رافقه، وهو يودّعه، إلى مدخل الفيلا، الهادئة في وسط الأشجار. قال له البروفسور الفرنسي بابتسامة: "لدى انطباع، جنرال، بأنني أزور - Colombey – Les – Deux Eglises إبان ما نسمّيه عبور الصحراء (في إشارة إلى منزل الرئيس شارل ديغول في عزلته في مسقطه وسط فرنسا)". اكتفى الرئيس فؤاد شهاب بابتسامة (المصدر نفسه).

وغاب عن الوعي على كرسيه.
على جناح السرعة جيء له بطبيب من مستشفى سيدة لبنان، المجاورة لمنزله، هو بشارة نفاع لإسعافه. لكنه أخفق في إنعاشه وهو على كرسيه مغمياً عليه. بعدما جسّ نبضه التفت الطبيب إلى روز: "انتهى الأمر".
قالت: "أرجوك، إفعل شيئاً له".
قال: "لقد انتهى الأمر".
ألحّت، فحقنه عبثاً بإبرة لم تُعِد الروح إلى الجسد المستسلم لغيابه.
مذ فقد وعيه توفي الرئيس، متأثراً بنوبة قلبية حادة عن 71 عاماً.
كان سليمان فرنجيه أول مَن أُعلِم بالنبأ، وبدأ توافد الشخصيات على جونيه. ما أن أعلنت وفاته تقاطر المعزّون. إلى سريره الحديدي البسيط، في منزل متواضع طبعه التقشف، حضر أحد أبرز مَن ناصبه العداء منذ النصف الثاني من ولايته الرئاسية. وصل بطريرك الموارنة بولس المعوشي يرافقه المطران أنطون خريش. صلّى للجسد الصامت.
قبل ثلاثة أيام، الأحد 22 نيسان، كان فؤاد شهاب قد استقبل سامي الصلح وبيار الجميل اللذين رغبا في التوسّط بينه وسيد بكركي لمصالحتهما، وإنهاء خصومة سنوات طويلة. لم يمانع قائلاً: "إذهبا إليه، وإذا تبيّن أن الحق معه أصعد إلى بكركي حافياً، وأقبّل يده وأعتذر منه. أما إذا تبيّن العكس فليسامحه الله".
ذهب الرجلان بعد ذلك إلى البطريرك الذي استمهل ثلاثة أيام قبل أن يقول: "أنا سأذهب لزيارة الجنرال"[27].
في اليوم الثالث غاب الذي كان أوصى بدفنه في مراسم عادية، لابساً بزّته العسكرية، وبعبارة مقتضبة: "صلّوا لي فقط"[28].
كانت البزّة الأقرب التصاقاً به. ورغم مغادرته الجيش قبل سنوات، ظلّ يحتفظ بها في خزانته مع سيفه، إلى بزّات أخرى مثّلت حقبات مختلفة من عمر المؤسسة العسكرية التي بنى. لم يخاطب الرئيس اللبنانيين لدى انطواء ولايته. لكنه، قبل أيام من ترك المنصب، توجّه إلى الضباط الجدد في احتفال تقليدهم السيوف بعد تخرّجهم ـ وكان وداعياً ـ مجرياً في أسطر مراجعة ذاتية. بدا يعود إلى جذوره في الجيش لا إلى السنوات القريبة من عمر وجوده في رئاسة الجمهورية.
قال: "في نهاية المرحلة التي انفصلت فيها عن صفوفكم لأؤدي مهمة، انتدبني لها وطنكم بوحي من مسلككم الوطني العالي، وبثقة من الجيش بتجرّد جيشه وتعاليه، دعوني أردّد أمامكم وعلى مشهد من رفاقكم القدامى، سؤالاً كنت أطرحه على نفسي عشية كل يوم: هل وفيتُ بالعهد وأدّيت واجب الأمانة؟ وأصدقكم أنه ما من مرة وجدت فيها خطأي، على طريق الصواب، إلا أرجعت ذلك ـ بعد يد الله الكريمة ـ إلى ما تلقّنته وتعلّمته وتشرّبته مثلكم، ومعكم، من مدرستكم الصغرى التي فيها تتخرّجون، إلى مدرستكم الكبرى التي إليها تخرجون. إن الإنجازات التي تمّت في مرافق الحياة المختلفة، المعنوي منها والمادي، وقامت بفضل إرادة الشعب، وبوحي من روحه وإجابة حاجاته وحقوقه وتنفيذاً لرغباته وتطلعاته، قد جاءت منسجمة مع المناقب التي عاش عليها جيش لبنان"[29].
إنه العائد أبداً إلى جوف حياة كأنه لم يبرحها مرة. إلى الدخول دائماً في البزّة.
في 26 نيسان شُيّع بمهابة. على ذلك السرير، فوق الجسد البارد الممدّد، انحنى رجلان كانا الأقرب باكيين. قبّل رشيد كرامي جبينه، والياس سركيس يده.

---

[27] ـ مقابلة خاصة مع العميد ميشال ناصيف.
[28] ـ مقابلة خاصة مع الأب يعقوب سقيم.
[29] ـ الرئيس فؤاد شهاب، **مجموعة خطب**، خطاب الأول من أيلول 1964، نشر وزارة الإعلام، بيروت، من دون تاريخ، ص 148 و149.

في ساعة الموت التي تتهاوى أمامها أصنام العداء، وتغفر فيها الذات للذات، وتتسامح الخصومة، قال البطريرك في الجنرال الرئيس إنه "الصامت الاكبر". العبارة التي التصقت به مذ كان على رأس قيادة الجيش. طبعته "الطيبة والزهد والصمت"، فإذا به مَن اختصم فيه الناس: "أطرى المؤيدون نهجه عاطر الإطراء وأحبه مَن أحبه حتى العبادة، وهاجمه المنتقدون أعنف هجوم وأبغضه مَن أبغضه حتى الموت. وفي كلتا الحالتين صَمَتَ. ما استخفه حب إطراء، ولا أخرجه عن وقاره بغض وانتقاد، وما فقد يوماً حقه في الإحترام"[30].

قبل أيام كان عبّر أمام بعض زواره وعائلة إبن شقيقه فريد عن إعجابه بعبارة عربية، رغب في ترجمتها إلى الفرنسية، وبدأ قبل ساعات من وفاته يحاول ملاءمة مضمونها والصيغة الفرنسية.

قالت العبارة:

"سأصبر حتى يعجز الصبر عن صبري.

وأصبر حتى يأذن الله في أمري.

وأصبر حتى يعلم الصبر أنني صابر على شيء أمرّ من الصبر".

[30] ـ رقيم البطريرك الماروني بولس المعوشي في تشييع الرئيس فؤاد شهاب (المطران نصرالله صفير، **وغابت وجوه**، الجزء الأول (1961 ـ 1983)، لا ذكر لدار نشر ولا لتاريخ النشر، ص 217 و218).